الانتقال والهجرة لعلماء الاباضية بين جبل نفوسة و بلاد الجريد ووارجلان حتى نهاية القرن [5 هـ / 11 م]

د. علي حامد خليفة الطيف
كلية الآداب الزاوية – جامعة الزاوية

المقدمة:

شهدت الفترة الواقعة فيما بين القرنين الثالث والخامس الهجريين نشاطاً ملحوظاً لفئة العلماء في المجال الرستمي، ومن بينها جبل نفوسة والجنوب التونسي، وعُدت من الفترات المهمة في تاريخ نشر الإسلام في المنطقة، وبرز عديد الأعلام من شيوخ وعلماء اشتركوا في حل كثير من المسائل الدينية حسب المذهب الأباضي، نذكر منهم فرج بن نصر نفات، وسعد بن يونس وسيم النفوسي[1]، ولؤاب بن سلام التو زري[2] في القرن الثالث الهجري، ومحمد بن بكر بن أبي بكر الفرسطاني في القرن الخامس الهجري، وكثيرون ممن تظهرهم هذه الدراسة[3]، المهم أن هؤلاء الأعلام كانت لهم إسهاماتهم في الحياة الدينية وصاغوا العديد من الحلول الاجتماعية والسياسية في تلك الفترة، كما أن أثارهم الدينية ظلت حاضرة إلى اليوم، إذ حفظت لنا عديد الكتابات وخاصة الأباضية منها،انتقال هؤلاء العلماء بين مجالات الدراسة سواء كانت هجرة لظروف ما، أو في صورة تنقلات عادية .

يهدف هذا البحث إلى دراسة نشاط هذه الفئة داخل الامتداد الجغرافي المغاربي (بلاد الجريد ووارجلان وجبل نفوسة)، ويهدف أيضاً إلى فهم واسع للحياة الدينية، ومعرفة الدور المشترك الذي قامت به هذه الفئة، ترافقنا في هذه الدراسة إشكاليات عدة تطرح تساؤلات أبرزها: ما هي نظرة المجتمع للعلماء؟ وما هو الدور الموحد الذي قامت به تلك الفئة في ترتيب الحياة الدينية والثقافية والاجتماعية؟، وحقيقة ذلك الانتقال، يقوم هذا البحث على عدد من النقاط الرئيسة تمثل أهمية في ظهور العلماء وبروز دورهم الثقافي والسياسي في مجال الدراسة مع دراسة خاصة للشيخ محمد بن بكر بن أبي بكر يوسف الفرسطاني كنموذج لهذا الانتقال وتأثيراته في الإصلاح وإقامة نظام الحلقة، ويعني بمشاركة العلماء في السلطة

ودورهم في التأليف والتدريس وتنقلاتهم لأغراض التجارة، وتبرز من خلال هذه الدراسة عدد من المسائل المشتركة داخل مجال الانتقال والهجرة .

تجدر الإشارة إلى أن هذه الدراسة لجانب العلماء والشيوخ في جبل نفوسة تختص بالهجرة والانتقال ولم تكن حصر لهذه الفئة، إذ يعد هؤلاء من أبرز الفئات أهمية في تلك المرحلة التاريخية التي تنتفض فيها المذهبية، وتظهر أكثر تأثيراً وتقسم المجتمعات، لكنها في المقابل تعطي زخماً دينياً ونشاطاً لفهم وتحليل كثير من المسائل الدينية التي تظهر بين الحين والأخر.

لاشك أن هذه الدراسة تختص بهذا الجانب، وتعنى بنشاط هذه الفئة التي أدت دوراً مهماً في مختلف مناحي الحياة، لا نستطيع أن نحكم ونظهر تلك الأحكام، دون أن نقدم ذلك الانتقال بشكله الطبيعي في الفترة المشار إليها، ونلمس عن قرب ملامح تلك المعطيات ونغوص في مضامينها، فمنذ بداية المراحل الإسلامية الأولى كان جبل نفوسة سباقاً إلى قبول الدعوة والأخذ بالإسلام، لعل الواقع في ذلك يعود إلى عدم تقبل أفعال الروم بعد الاحتكاك معهم عن قرب، وعدم تمكنهم من أخذ زمام ألأمور طوال تلك المرحلة التاريخية، فتوقف الفتوحات والجيش الإسلامي بقيادة عمرو بن العاص سلميا في جبل نفوسة سنة 24 هجرية، وفي مدينة شروس تحديداً كما أوردته الكتابات التاريخية، يعكس لنا بداية عهد جديد لأقوام هذا الجبل، ويعطي مؤشراً أن أهالي الجبل كانوا على دراية بهذا الدين[4] .

وللحديث عن بدايات انتشار الإسلام والحياة العلمية بطابعها الإسلامي ببلاد المغرب، ندين في ذلك إلى عدد كبير من صحابة الرسول عليه الصلاة والسلام نذكر منهم عبدالله بن عمر بن الخطاب، عبد الله بن عمرو بن العاص، عبدالله بن الزبير، بلال بن حارث المزني، كعب بن عمر، سلمه بن الأكوع، عبدالله بن العباس[5]، عقبة بن نافع الفهري، كما أن تقدم الحياة العلمية في جبل نفوسة وبلاد المغرب عامة، ندين فيه إلى جهود البعثة العلمية التي أرسلها الخليفة الأموي عمر بن عبد العزيز سنة 100 – 101 هـ، لترسيخ الإسلام ونشر العلوم الدينية واللغوية في بلاد المغرب، ومنهم موهب بن حي المعا فري، حبان بن حبان ،

بكر بن سواده الجدامي، عبد الرحمن بن رافع التنوخي، سعيد بن مسعود النجيوي، أبوعبدالرحمن الحبلي[6] .

وإضافة إلى تلك الجهود التي بُذلت لنشر الدين الإسلامي وتعليم القرآن في الجبل والتي لا ندري ماذا كان نصيب أهالي الجبل من تلك الجهود المتقدمة، لكننا على علم بان سلمة بن سعيد الحضرمي[7] كان أول داعية إسلامي تذكره المصادر الأباضية يصل مدينة طرابلس في السنوات الأخيرة من القرن الأول الهجري، ويستقر بعد ذلك في جبل نفوسة، إذ لم يكن دور هذا الداعية ينحصر في تعليمه مبادئ المذهب الاباضي فحسب، بل أنه أرسل عدد من طلاب العلم ليتفقهوا على يد زعيم الحركة في البصرة أبي عبيده مسلم بن أبي كريمة التميمي[8]، وعند عودة أحد الأشخاص الذين بعث بهم الحضرمي ويدعى أبا عبد الله محمد بن عبد الحميد بن مغيطر الجناوني، حيث بدأ في دعوة أهالي منطقة طرابلس إلى الأخذ بالمذهب الأباضي، وأختفي الداعية بن سلمه الحضرمي من المنطقة [9] .

ويذكر صاحب كتاب سير الأئمة وأخبارهم لأبي زكريا الخمسة نفر الذين تتلمذوا على يد أبي عبيدة مسلم التميمي وهم أبو الخطاب بن السمح المعافري ومعافر قبيلة عربية من اليمن، وعبد الرحمن بن رستم الفارسي وعاصم السدراتي وإسماعيل بن درار الغدامسي وأبو داوود القبلي النفزاوي[10]، هؤلاء الخمسة هم الذين أسسوا للمذهب الأباضي في بلاد المغرب وسعوا ونجحوا في إقامة دولة اسلامبة عرفت بالرستمية أوائل القرن الثالث الهجري .

بعد هذا العرض لبدايات انتشار الإسلام في منطقة طرابلس وجبل نفوسة، ندرك أن استقرار الأمور للدولة العربية الإسلامية في بلاد المغرب سهل على أهالي الجبل مهمة نشر الدين الإسلامي، وبذلوا كل ما في وسعهم من أجل ذلك، وما أن أنقضت الدولة الأموية سنة 132هـ / 750م حتى وصلت الحركة الثقافية في جبل نفوسة إلى مرحلة من النضج الفكري، الذي يسمح بتعليم الدين عن قرب، وبدأ عديد العلماء من أهالي الجبل في الظهور، ومع شيوع حركة المذاهب الإسلامية في تلك الفترة أخذ هؤلاء الشيوخ بالمذهب الأباضي الذي كان نتاج لديوان جابر بن زيد[11] .

لا أريد الغوص في جانب النشاط الثقافي في الجبل لأن ذلك يعد بعداً عن الموضوع، لكنه من المفيد أن نشير إلى أن تلك الحركة الفكرية ما كان لها أن تقوم لولا عوامل عدة أسهمت في ذلك، **أولها:** إن أهالي الجبل كان لهم الشغف من أجل نصرة الدين والأخذ بالإسلام وجاهدوا من أجل ذلك، ولهذا خرجت من بينهم منذ نهاية القرن الأول للهجرة ثلة من العلماء والشيوخ، سعوا إلى تعليمه وتوطيد أركانه، حيث بدأ المذهب الأباضي يسري عند أهالي الجبل على يد أحد الدعاة القادمين من بلاد المشرق البصرة كما أوضحنا سلفاً ، إذا استطاع أن يميل الكثير من الأنصار إلى دعوته في كل من طرابلس وجبل نفوسة[12] .

وثانيها: فإن تلك الدعوات أتاحت لأهالي الجبل ظهور عدد من الشيوخ والعلماء في مختلف قراه ومدنه ، أسهموا مساهمة فاعلة في ذلك النشاط الفكري والعلمي، **وثالثها:** إن هؤلاء العلماء تمكنوا منذ بداية عهدهم من تعليم الكثير من الصبيان بل وحتى الفتيات، انتظموا في حلقات علمية، الأمر الذي أدى إلى إقامة عدد من المدارس الدينية، أبرزها مدرسة عمر بن يمكتن في قرية إبفطمان التي أنشئت في عام 140 هـ/758م، وتعد أول المدارس لتحفيظ القرآن في الجبل، كما أن أهالي الجبل سعوا منذ بداية عهدهم بالإسلام إلى العناية بحفظ القرآن والحديث وفهم المسائل الدينية التي كانت تدور بين لالوت وتاغرمين[13] كل هذا النشاط الفكري لأهالي الجبل أمكن من خلاله بروز فئة من العلماء بداية من القرن الثالث الهجري، إذ كان لهم السبق في نشر الإسلام في بلاد المغرب، وتواصلوا مع العديد من المراكز والحواضر المغربية من أجل نشره ، عن طريق عدد من الشيوخ العلماء أدوا مهمة الانتقال والهجرة والتواصل مع المجالات المجاورة .

وتجدر الإشارة إلى أن الغاية من هذا البحث للعلماء، ليست تعميقاً لمفاهيم المذاهب، بل أن الغاية هو إثبات إسهامات وأدوار الأهالي في نشر الدين الإسلامي، وبروزهم كدعاة وعلماء في جبل نفوسة، في الكثير من الولايات المجاورة، وهذا ما تسعى هذه الدراسة لإثباته بعيداً عن الانقسامات الدينية .

من خلال هذه المقدمة لبدايات الحياة العلمية في جبل نفوسه، يتضح لنا أن الأهالي سعوا منذ فترة متقدمة للأخذ بالإسلام وتثبيت أركانه، الأمر الذي دفعهم للتأثير في المجالات

الأخر (بلاد الجريد، وارجلان)، وبذلك يحسن بنا القول أن نقدم الكثير منهم حسب ما توفر لنا من مادة علمية يصاحبها تراجم لشخوصهم وأنشطتهم العلمية، وفي هذه الدراسة أيضاً نقدم نموذجاً من هذا الانتقال ونحصره في العالم الجليل محمد بن بكر بن أبي بكر يوسف الفرسطاني الذي كان متنقلاً بين قرى ومدن بلاد الجريد وجبل نفوسه و وارجلان وغيرها من المجالات داخل المحيط الأباضي .

اتخذ الانتقال والهجرة لعلماء جبل نفوسة عدد من المناحي لها علاقة بعدد من العوامل التي خيمت على تلك المرحلة التاريخية، ففي بداية الأمر تعلق الانتقال بمسألة التعليم والاشتراك في المذهب، كما أن المجال المشترك لجبل نفوسه مع مجالات الدولة الرستمية الأخرى، كان أحد العوامل التي أدت إلى ذلك الانتقال،وبرز عامل أخر له أهميته وهو المشاركة في السلطة وتوزيع الولاة داخل جسم الدولة،اد كان له حضور لا يقل أهمية عن بقية العوامل ، هكذا سارت الأمور حسب معطيات تلك العوامل منذ بداية القرن الثالث الهجري وحتى العقود الأخيرة منه، وتعد فترة ازدهار للدولة الرستمية .

غير أن الأمور تبدلت بنهاية الدولة الرستمية، فمنذُ بداية القرن الرابع الهجري اقترن الانتقال والهجرة بالصراعات المحلية، إضافة إلى المجاعات التي حلت بالجبل وبعض المجالات المجاورة ، أما المرحلة الثالثة والتي تظهر أكثر بروزاً وهي مرحلة القرن الخامس الهجري، وفيها اقترن الانتقال والهجرة بالاضطرابات التي أحدثتها الدولة الصنهاجية والهجرة الهلالية وأفرزت توسعاً ملحوظاً في جانب انتقال العلماء، ولم يقتصر الأمر خلال تلك المرحلة على العلماء وحدهم ، بل أنتجت هجرات جماعية من الجبل بلغت ذروتها في اضطرابات يحيى بن إسحاق الميروقي المعروف بابن غانية[14]، كل هذه المراحل رافقت أحداث الانتقال والهجرة للعلماء نلمسها بوضوح من خلال تتبعنا للنقاط الآتية :

1 – دورهم في السلطة:

منذ فترة متقدمة تعود إلى ما قبل سنة 171هـ / 787م، أسهم العلماء بجبل نفوسة في ترتيب أركان الدولة، وعملوا كدعاة في المجالات المجاورة، فهذا الشيخ وكيل بن دراج النفوسي الذي كان صاحب رأي ومشورة، عُين من طرف الإمام عبد الوهاب بن عبد الرحمن

بن رستم عاملاً على مدينة قفصة في بلاد الجريد[15]، وفي الفترة نفسها عُين الشيخ وسيم بن أبي يونس ين نصر الويغوي النفوسي من طرف الإمام عبد الوهاب كداعية ووالي على قنطرار ببلاد الجريد، ولم يقتصر الأمر عن وسيم بن يونس بل أن أبنه سعد بن يونس عُين أيضاً من طرف أفلح بن عبد الوهاب (211 – 258)هـ (826 – 871) م، كوالي على قنطرار بعد وفاة أبيه، وفوزه في ذلك على فرج بن نصر (نفات) الذي كان يطمح لتولي المنصب نفسه[16]، وقد كان سعد بن يونس بن وسيم النفوسي وفرج بن نصر الذي لقب بنفات يدرسان في حلقات الإمام أفلح بتاهرت في النصف الأول من القرن الثالث الهجري، وبلغا من العلوم درجة متقدمة، وعندها أرادا العودة إلى بلديهما، وصادف ذلك أن أبو سعد وسيم النفوسي قد توفي، فكتب الإمام أفلح كتاب وأوصى لهما بعدم الاطلاع عليه حتى وصولهما، غير أن نفات فتح الكتاب ووجد أن سعداً هو الذي أولاه الإمام أفلح الولاية (قنطرار)، وهو يفوقه علماً، وعند ذلك خرج عن السلطة واتهم الإمام بأنه يزيد في الخلقة ويلبس الطرطور ويخرج إلى الصيد ويصلي بالأشير، وهذا ما يفسر لنا معارضة نفات لمظاهر الترف والبذخ التي بدأت تتفشى في القصر، كما أن أصحاب المذهب الأباضي (الوهبية) المواليين للسلطة اتهموه بأنه أنكر خطبة الجمعة وقال إنها بدعة وضلالة وأن الله هو الدهر الدائم، وأنكر جباية الحقوق الشرعية ومطلب بيت مال المسلمين من الرعية، وأن أبن الأخ الشقيق أحق بالميراث من الأخ من الأب.

كل هذه المسائل أوجدت اختلافاً وتقاطعا بين الشيخ فرج بن نصر نفات و السلطة، وأصبح القائمون على السلطة ينظرون إلى أن نفات خارج عنهم، ويجب القصاص منه، ويعد خروجه عن السلطة الافتراق الثالث للإباضية حسب ما صنفته الكثير من الكتابات، مما دعي الإمام أفلح إلى مخاطبته بعدد من الرسائل عرفت باسم رسائل الإمام أفلح في حق نفات .

وبدون المضي في تفاصيل أحداث خروج نفات، فإن هذا الأخير جمع ما عنده من مال وغادر جبل نفوسة إلى سرت حتى وصل بغداد هروباً من مواجهة السلطة[17]، ومن العلماء الذين لهم دور في إدارة شؤون المجتمع ، وكان أكثر تجولاً العالم الجليل محمد بن بكر بن

أبي بكر بن يوسف الفرسطاني النفوسي (أبو عبدالله) من قرية فرسطا الموجودة إلى اليوم شرق مدينة كاباو بجبل نفوسه، حدد تاريخ ميلاده بعد خلاف سنة 345هـ، ويعد أحد الأقطاب الأباضية في بلاد المغرب وهو الركيزة الأولى التي قام عليها نظام حلقة العزابة أوائل القرن الخامس الهجري 405هـ، وصفه الدرجيني نقلاً عن كتاب أعلام الإباضية بقوله: " هو الطود الذي تضألت دونه الأطواد، والبحر الذي لا تقاس به الثماد، وهو خضم عظيم من جلائل السير والآثار "[18]، وعلى الرغم من أنه لم يشارك في السلطة بشكل مباشر، ونشاطه أقتصر على التدريس والتأليف، فإنه من خلال نظام حلقة العزابة أوجد فرزاً لطلابه فمنهم من يصلح للقيادة الدينية ومنهم من يخصص للتعليم ومنهم من لا يصلح إلا لنفسه[19] وبذلك أسهم في السلطة بطريقة غير مباشرة، ولأهمية ما قدمه هذا الشيخ في ميدان العلم والنظام والتنقل بين أقاليم الجريد وجربة وجبل نفوسه ووارجلان، رأينا أن نخصه بدراسة لمجهوداته العلمية والتنظيمية .

ومن العلماء الذين كان لهم دور في السلطة أبو السهل الفارسي من أهل القرن الثالث الهجري، غلبت عليه هذه التسمية لكونه نفوسي أمه رستمية، من بيت الإمامة وقيل إنه رستمياً أماً وأباً، وأن أباه ولد لميمون بن عبد الوهاب بن عبد الرحمن بن رستم أتخذه الإمام أفلح بن عبد الوهاب ترجماناً وقيل إنه تولى القضاء بوارجلان فكان زاهداً متعففاً عادلاً[20] .

وفي النصف الأول من القرن الرابع الهجري نجد سليمان بن زرقون النفوسي ويكنى بأبي الربيع، ويعد أحد العلماء البارزين لأزم أحد شيوخ المشرق عند قدومه إلى بلاد المغرب (أبن الجمع[21])، واستقر في توزر بتونس ثم نتقل معه إلى سجلماسة، ليتتلمذ على يديه، ويبدو أنه كان ضد السلطة في إفريقية، حيث نجده ملازماً أيضاً لصاحب الثورة الكبرى في بلاد المغرب ضد الفاطميين أبو يزيد بن مخلد ين كيداد قبل نكرانه للمذهب الأباضي، مكث سليمان بن زرقون في سجلماسة[22]، حتى وفاة شيخه أبن الجمع فعاد إلى قسطيلية بتوزر فعين بها مفتياً .

ومن علماء جبل نفوسة الذين فضلوا الانتقال والهجرة الشيخ لؤاب بن سلام الأغرميمان التوزري، يعود في أصله إلى قرية الأغرميمان بجبل نفوسة، نشأ وتربى في كنف عائلة

تعتني بالعلم والثقافة، وتتلمذ على عدد من المشايخ منهم كبة التنكينصي، ويبدوا أنه كان على خلاف مع السلطة إذ أنه راسل خلف بن السمح والتقى معه قي جندوبة بالجبل 271هـ / 884م[23] .

ومن شيوخ جبل نفوسة نجد يوجين بن نوح اليفرني (أبو محمد)، من علماء النصف الأول من القرن الرابع الهجري ينسب إلى مدينة يفرن بجبل نفوسة، أيدا أبا خزر يغلا بن زلتاف على المعز الفاطمي في معركة باغاي سنة 358هـ / 968م، وعندما فشلت الثورة تحصن مع أبي خزر عند جبل تلتماجرت، ثم انتقلا إلى جبل نفوسة بعد أن أعطاهما المعز الأمان[24] .

وفي القرن الخامس الهجري يطالعنا الشيخ عبد الله ابن أم أبان النفوسي، الذي يبدو أنه تزعم أحد الحركات المناوئة للمعز بن باديس الصنهاجي، وبعد ظهور حركته لجأ إلى قلعة بني درجين في بلاد الجريد، فحاصرها عامل صنهاجة بن قطلو عام 440هـ / 1048م، وتمكن هذا الأخير من قتل االشيخ عبد الله في القلعة مع عدد من الخارجين من الدولة الصنهاجية، ولم يكن عبدالله بن أبان وحده في القلعة من الشيوخ النفوسين فقد قتل معه الشيخ النفوسي يوسف بن بيفاو (أبو يعقوب) والذي يعد من رجالات الدين الصالحين، ومعارضاً للسياسة الصنهاجية[25]، وفي نهاية القرن الخامس الهجري نجد يخلف بن يخلف النفوسي التيمجاري العزابي وهو من قرية تيمجار[26] وهو جد الشيخ أبي العباس أحمد بن سعيد الدرجيني صاحب كتاب الطبقات وعُين قاضياً في أريغ بوارجلان[27] .

من خلال هذا العرض لمشاركة العلماء في جبل نفوسة في السلطة على أثر الانتقال والهجرة في المجالات المجاورة، يتضح لنا تقلب هؤلاء بين مناصب الولاة والقضاة والتشريعات الدينية، إضافة إلى معارضتهم للسلطة وبخاصة في القرن الخامس الهجري .

2 – العلم والتدريس:

مثل شيوخ وعلماء جبل نفوسة أهمية في جانب العلم والتدريس سوى كان ذلك في الجبل أو في تنقلاتهم إلى المجالات المجاورة التي ينتشر فيها المذهب الأباضي، فمنذ فترة متقدمة تعود إلى نهاية القرن الأول الهجري وصل إلى بلاد المغرب الداعية سلمة بن سعيد

الحضرمي الذي أرسله أبو عبيدة بن مسلم من البصرة يدعو إلى المذهب الأباضي في بلاد المغرب، وخص في ذلك جبل نفوسة وطرابلس وبلاد نفزاوة وجبل دمر[28]، ويعد الشيخ عبد الحميد بن مغطير الجناوني من أوائل المغاربة الذين أرسلهم سلمة بن سعيد إلى البصرة لأخذ العلم من إمام المذهب أبو عبيدة مسلم بن أبي كريمة ثم عاد إلى طرابلس لغرض العلم والتدريس[29] .

وبدون الدخول في تفاصيل بدايات التعليم والتدريس في جبل نفوسة، نجد من شيوخ الجبل وعلمائه من فضل الانتقال والهجرة إلى المجالات المجاورة في بلاد الجريد ووارجلان لغرض التعليم والتدريس، فهذا وكيل بن دراج النفوسي (171-208)هـ / (787-828) م، من أوائل شيوخ جبل نفوسة الذين وصلوا إلى بلاد الجريد في عهد الإمام عبدالوهاب بن عبدالرحمن بن رستم كان عالماً مستوفياً لعلمه وكان دي رأي ومشورة في الكثير من الجوانب العلمية[30] .

وفي القرن الثالث الهجري نجد الشيخ لؤاب بن سلام الأغرميماني التو زري وهو من علماء جبل نفوسه كما مر بنا سابقاً، كان عالماً بالأصول والفروع كما كانت له عناية بعلم الكلام ومن مؤلفاته كتاب بدء الإسلام وشرائع الدين، وهو كتاب شامل لمسائل الفقه والكلام والتاريخ والسير[31]، ويعد هذا الكتاب في نظر المستشرق البولوني تاديوش لفنتسكي من أقدم كتب السير في شمال أفريقيا، نشر هذا الكتاب سنة 1975م بعد أن حقق على يد سالم بن يعقوب والمستشرق الألماني سفارتز .

ومن علماء القرن الثالث الهجري أبو صالح النفوسي، ويبدو أنه نفسه أبو صالح ياسين الدركلي النفوسي، الشيخ الأباضي الشهير اشتغل بالتدريس وتتلمذ على يده الشيخ أبي خليل صال الدركلي الذي عاش في النصف الأول من القرن الثالث الهجري[32]، وكان متنقلاً حيث التقى مع ابن سلام بن عمر في توزر ببلاد الجريد سنة 240هـ / 854م .

ومنهم عيسى بن سجميمان النفوسي (أبو عمرو) وهو من مشايخ جبل نفوسة أصلاً ووارجلان مسكناً وداراً، عاصر الوسياني صاحب السير، ورؤى عنه في سيره بعض الأخبار، كما أنه تلقى بعض علمه من أبي الربيع سليمان بن زرقون (300-350)هـ، وعاصره ورؤى

عنه رأياً فقهياً في مسألة الوتر، مما يدفعنا إلى القول على إنه أستاذه[33]، وما دمنا في الحديث عن أبن زرقون، فإنه بلغ من العلم درجة كبيرة، وأعجب به شيخه أبن الجمع، فأوصى له بجميع كتبه في سجلماسة، وعاد إلى مزاتة يدعو إلى المذهب الأباضي وتخليصها من الدعوات الأخرى، ونجح في ذلك، وعلى يده تعلم أبو خزر يغلي بن زلتاف وأبو القاسم يزيد بن مخلد بن كيداد وأخذوا عنه فنون العلم والفقه والأعراب واللغة[34] .

ومن أسر الجبل التي اختارت الانتقال والهجرة يورد محمود كوردي نقلاً عن أبي الربيع الوسياني أن أسرة بكر بن أبي بكر الفرسطاني النفوسي والتي تعود في أصولها إلى قرية فرسطاء، حيت فضلت هذه الأسرة الهجرة والاستقرار في بلاد أريغ بجنوب الجزائر الحالي، إذ تلقى جد العائلة المذكور تعليمه أولاً في جبل نفوسة على يد الشيخ سليمان بن ماطوس الشروسي، وعند وصوله إلى بلاد الجريد أريغ تحديداً أوائل القرن الرابع الهجري، صار من الشيوخ والفقهاء الكبار، وله مسائل فقهية عدة[35]، وخلفه أبنه محمد وهو من أقطاب العلم والذي يحظى بدراسة متفردة في هذا البحث .

ومن الشيوخ الذين أسدوا في ميدان العلم والتأليف وشدوا الرحال إلى خارج الجبل الشيخ أبو يعقوب يوسف بن نفات التيمجاري النفوسي الذي استقر في بلاد أريغ عام 440هـ / 1049م، وكان الهدف من هجرته في البداية الاستزادة في العلم وكان شيخاً فقيهاً عالماً، له عدد من المراسلات مع غيره من العلماء، وله عديد الفتاوى وكان معاصر لأبو عبد الله محمد بن بكر الفرسطاني، والشيخ سعيد بن زنغيل، ولغزارة علمه كانوا يعودون له في الكثير من المسائل الفقهية[36] .

وفي القرن الخامس الهجري أيضاً وفي ميدان التأليف والعلم نجد الشيخ إبراهيم بن مطكوداسن أبي إبراهيم بن يخلف بن مالك الغرماني يعود في أصله إلى قرية تغرمين بجبل نفوسة فضل الانتقال إلى الغرب واستقر ببلاد أريغ وانتقل فيها إلى قرية ايتن ماطوس بالقرب من وراجلان أخذ علومه من عدد من المشايخ منهم الشيخ سليمان بن يخلف (471هـ/ 1078م)، وهو أحد العلماء المعتنيين بالتاريخ والسير، كما أنه من العلماء الثمانية الذين اشتركوا في تأليف ديوان العزابة أوائل القرن الخامس الهجري، ولعنايته بالعلم والتأليف ترك

مكتبة كبيرة فيها الكثير من المؤلفات والمصنفات قدرت على نحو أربعون مخلاة أوصى بها قبل مماته لتلميذه الشيخ أحمد الفرسطاني[37] .

ومن علماء النصف الثاني من القرن الخامس الهجري والذين لهم دور في الانتقال والهجرة الشيخ أحمد بن محمد بن بكر بن أبي بكر الفرسطاني، وهو سليل عائلة كانت على عناية بالعلم كما أشرنا في مواضع عدة من البحث، يعود في أصوله إلى قرية فرسطا في الجبل والتي أنجبت الكثير من العلماء أسهمت في صياغة تاريخ الجبل العلمي وحققوا نجاحات خارج الجبل وداخله في ميدان العلم، عاش الشيخ احمد مند نشأته في وارجلان لاستقرار الأسرة هناك وأخذ علومه عن والده وعن الشيخ سليمان بن يوسف المزاتي وسعد بن بيفاو، وعاد هذا الشيخ إلى وطنه الأم زائراً ومسافراً من بلاد الجريد قصد الاستزادة في العلم حيث يذكر إنه جلس في مكتبة (خزانة نفوسة)[38]، وجد فيها من الكتب ما يفوق ثلاثة وثلاثون ألف كتاب، ودرس على يده في الجبل في زيارته هذه عدد من الطلبة نذكر منهم يحيى بن زكريا وعبد السلام بن عبد الكريم ومحمد النفوسي وصالح بن أفلح وأبو عمرو بن عثمان بن خليفة السوقي، ومن كتبه: (القسمة وأصول الأرضيين، التوحيد، السيرة في الدماء والجراحات، الألواح، تبيين أفعال العباد، الديات، أبي مسألة)، ويضيف لهم ليفنسكي (مسائل الأموات، كتاب القسمة أو تلخيص القسمة)، وهو من ضمن العلماء الذين اشتركوا في تأليف ديوان العزابة وأسند له قسم الحيض[39]، وإضافة ‘إلى مؤلفاته كان الشيخ أبو العباس أحمد بن محمد بن بكر النفوسي راوٍ ومناضل مفتي علامة متنقلاً بين إقليم مسقط رأسه بوادي أريغ، وقضى سنين مراهقته في تمولست جنوب شرق تونس (بلاد الجريد)، كما أنه زار في الفترة نفسها مدينة قابس، ثم انتقل إلى تماوط في واحة وارجلان، ويذكر إنه ألف أكثر من عشرين أو خمسة وعشرون كتاب، ونقل إلينا روايات عدة خصوصاً عن شيخه أبي الربيع سليمان يخلف توفي سنة 504هـ /1110م ودفن في محلة وأجلو الغربية (البليدة) في الجنوب الشرقي الجزائري[40] .

ومن العلماء المتنقلين من وارجلان إلى جبل نفوسة نلقى أبا يعقوب يوسف بن تمال درس أثنا عشر عاماً على يد العالم المعروف في جبل نفوسة وارسفلاس بن مهدي الذي عاش في

النصف الأول من القرن الخامس الهجري وينتمي من حيت الأصل إلى قبيلة مزاتة[41]، ومن علماء نفوسة الذين عاشوا في بلاد الجريد في النصف الثاني من القرن الخامس الهجري نذكر أبو الحسن علي بن سالم النفوسي، كما نلقى الشيخ حمو بن المعز النفوسي ويذكر صاحب كتاب معجم الأباضية إنه حي حتى مطلع القرن السادس الهجري، وهو من علماء وارجلان البارزين، وهو من المعاصرين للشيخ أبا سليمان أيوب إسماعيل، وشارك في تصحيح مؤلفات الشيخ أبي العباس أحمد بن محمد بن بكر وله فتاوى فقهية عدة ضمن البعض منها كتاب السؤلات للسوفي[42] .

ومن أعلام الأباضية الذين فضلوا الانتقال والهجرة نجد الشيخ أبو سعيد يخلفتن بن أيوب المسناني النفوسي وهو من أهل النصف الثاني من القرن الخامس الهجري، كان مفتي وعلامة وراوٍ له عناية بالروايات عن أوائل الأباضية، ولد في أمسنان وإليها ينسب، وهو أبن لرجل من نفات وامرأة أباضية، درس في تونين لدى الشيخ أبي الربيع سليمان بن يخلف المزاتي تم في محله تماوط في واحة وارجلان على الأرجح (وادي أريغ)، كما أنه درس عند الشيخ أبو محمد ماكسن بن الخير، وما يؤيد انتمائه إلى فترة النصف الثاني من القرن الخامس هو أن الشيخين المذكورين ينتميان للفترة نفسها، وفي ميدان العلم التأليف ترك لنا عديد الكتب منها (مسائل الخلاف، النكاح وهو قسم من كتاب ديوان العزابة فيه أربعة أو خمسة وعشرين جزء)[43] .

ومن شيوخ القرن الخامس الهجري نذكر بابش بن أحمد بن أبي بمر الباباشي449هـ / 1057م، وفد إلى وادي ميزاب بأريغ وارجلان من نفوسة هروباً من هجرة بني هلال، وتجدر الإشارة إلى أن أعداد كبيرة من النفوسين انتقلت من جبل نفوسة إلى وادي الزاب وأريغ في تلك السنوات التي زحف فيها بني هلال إلى شمال أفريقيا[44]، وبالرغم من أن المصادر لا تتحدث عن ذلك بشكل مباشر فإن ابن خلدون أورد نصاً في غاية الأهمية بقوله:" ... وسارت قبائل دئاب وعوف زغبة وجميع بطون هلال إلى إفريقية كالجراد المنتشر، لا يمرون على شيء إلا أتو عليه حتى وصلوا إلى إفريقية سنة ثلاثة وأربعين "[45] .

ومن أعلام النصف الثاني من القرن الخامس الهجري إبراهيم بن زمور الزنزفي وهو شيخ تفي وراوٍ، ويدل نسبه الزنزفي إلى أنه كان من قبيلة زنزفة البربرية القاطنة جنوب شرق تونس والقريبة من جبل نفوسة وبالقرب من بلاد الجريد،وكان متنقلاً بين الجنوب التونسي وجبل نفوسة إذ التقى مع الشيخ أبي عبدالله محمد بن سليمان النفوسي في قرية ابد يلان في جبل نفوسة في حلقات علم تدار بين عديد العلماء لحل الكثير من المسائل الدينية وتقديم الفتاوى الأزمة بشأنها[46] .

3 – الاشتغال بالتجارة:

منذ فترة متقدمة تعود إلى القرن الثالث الهجري تشير الكتابات الأباضية إلى أن هنالك من شيوخ العلم الذين اشتغلوا بالتجارة وجمعوا بين الدين والدنيا وحثوا في ذلك على مشروعية الكسب الحلال، فمن أولى الإشارات كان الشيخ محمد بن يانس الدركلي النفوسي وهو من أعلام القرن الثالث الهجري، اعتمد في رزقه ومعاشه من خلال اشتغاله بالتجارة،وكان من ضمن المرسلين الأربعة إلى الإمام عبد الوهاب الذي طلب مئة فقيه في الحلال والحرام فقال أبو المنيب أنا أكفيكم علم الحلال والحرام[47]، ما يدل على أنه كان عارفاً لدينه ودنياه ومنهم أيضاً أبو يحيى القرسطاني والذي كان كثير السفر إلى بلاد السودان عن طريق وارجلان النصف الثاني من القرن الثالث الهجري، وهو الذي أسلم على يديه أحد ملوك السودان[48].

شكلت وارجلان النقطة الأهم لأهالي حبل نفوسة وشيوخها، وهي الشريان الصحراوي الذي يربط الجبل مع المدن الصحراوية في المغرب الأوسط والواصل إلى أريغ وأجلو وسوف، والعامل الرئيس في ذلك التواصل بين المجالين هو الاشتراك في المذهب الأباضي، إضافة إلى وقوعهما تحت سلطة واحدة (الرستميون) على الأقل خلال القرن الثالث الهجري ولم يكن هذا الطريق الواصل لمدن وارجلان من جبل نفوسة فقط، أنما يمر أيضاً بإقليم نفزاوة، هذا الأخير الذي يعد الشريك الثاني لجبل نفوسة في العاملين السابقين، وبدون الدخول في تفاصيل الطريق التجاري ومحطاته والقوافل المارة فإن عدد من شيوخ الدين امتهنوا التجارة كمصدر رزق في جبل نفوسة، كانوا متنقلين بين نفزاوة وإقليم وارجلان، فمن الطبيعي أن يكون لأهالي الجبل علاقات تجارية مع الإقليمين، وعلى الرغم من أن المصادر

لا تقدم لنا زخم ذلك الانتقال لأغراض التجارة وخاصة عند شيوخ العلم ، الذين عملوا للدين والدنيا، حيث يذكر أبا زكريا في كتابه السير، إن أبا يعقوب يوسف بن الوالي أحد علماء الأباضية عندما أراد الوصول إلى نفزاوة مر صحبة قافلة تجارية إلى سوف ومنها أعتزم السفر إلى نفزاوة [49]، وإضافة إلى مسلك جبل نفوسة نفزوة بلاد الجريد ووارجلان، نجد أن تجار نفوسة لهم علاقات تجارية مع تجار غدامس الدين لهم شريان يربط غدامس مع وارجلان مباشرة، ولهذا فإن تجار نفوسة كانوا يمرون عبر هذه الطريق الذي تقدر مسافتها بنحو عشرين يوماً في صحراء قليلة المياه، وعبر هذه الطريق وصل تجار نفوسة إلى وارجلان ثم واصلوا مسيرهم إلى تادمكة ومنهم أبو الربيع بن أبي هارون المعروف بثرائه، ومنهم أيضاً أبي نوح بن زنغيل[50] .

ويشير أبو زكريا في كتابه سير الأئمة إلى أبي مسور سيجا بن يوجين اليهراساني (زكريا) وأبا مسور هذا تعلم في جبل نفوسة، وبدون الدخول في تفاصيل تنقلاته، فإن هذا الأخير بعث أبنه أبا زكريا إلى نفزاوة لغرض التجارة " فلما وصلها اجتمع أهلها من بني يزمرتن ومن بها من أهل الدعوة، فعبوا للشيخ أحماله ووقروها تمر، فأنفذها أبوزكريا ...إلى أبيه وأنفذ أيضاً ما جاء به من الدنانير التي أرسله بها أبوه لشراء التمر، ثم عمد إلى عمامته فنزعها وباعها وأمسك ثمنها لحوائجه"[51]، يبين لنا هذا النص وجود تجارة التمر مع بلاد نفزاوة، كما أنه يبين مكانة العلماء عند المجتمع، إذ حرص أهالي بني يزمرتن على استقبال الشيخ والعناية به وتحميله ما جاء من أجله من طرف أبيه الشيخ وتحميله ما جاء من أجله من طرف أبيه الشيخ وهو أحمال التمر من دون أن يدقع قيمتها.

4- الإصلاح ونظام الحلقة:

نقتصر الحديث حول هدا الموضوع على دور الشيخ محمد بن بكر بن أبي بكر بن يوسف الفرسطاني النفوسي (أبو عبدالله)، ولد الشيخ أبو عبدالله بمدينة فرسطاء بجبل نفوسة شرق مدينة كباو الحالية ولم يتفق على تحديد مولده، غير أن علي يحبى معمر وسالم بن يعقوب مؤرخا جبل نفوسة يحددان مولده بسنة 345هـ[52]، تتلمذ على يد الشيخ أبو نوح سعيد بن زنغيل بالحامة قبل رحيله إلى مصر عام 362هـ، أخذ مبادئ العلوم بمسقط رأسه

فرسطاء، ثم تنقل بين جربة والحامة والقيروان، فبعد أن تعلم اللغة العربية وعلوم الآلة[53]، انتقل إلى الأخذ من علوم الشريعة عند الشيخ أبي زكريا فصيل بن أبي مسور بالجامع الكبير بالقيروان، ثم سافر إلى قسطيلية ببلاد الجريد بحثاً عن الشيخ أبي عمران موسى بن زكريا ليأخذ منه الفقه والفروع غير أن وفداً من جزيرة جربه أوحى له بتأسيس حلقة العزابة .

وعن مصدر رزقه فقد كان أبو عبدالله يمتهن تربية الماشية وأتخذ لتفسه غنماً ينتقل بها إلى مصدر الكلى بين جبل نفوسة ووادي سوف ووادي أريغ ووادي ميزاب، امتلك ضيعات كثيرة حيث أشار الويساني في هذا الخصوص نقلاً عن كتاب معجم الأباضية إن بني ورتزلن غرسوا له خمسمائة فسيلة "وحيين كلُّهن وبلُّغن العشور"[54]، توفي في وارجلان سنة 440هـ / 1049م .

من خلال هذه الترجمة للشيخ محمد بن بكر بن أبي بكر بن يوسف الفرسطاني النفوسي، يتضح لنا أن هذا الشيخ يعد مثلاً فريداً في التنقل والهجرة بين جبل نفوسة والقيروان والحامة ووادي أريغ ووادي ميزاب، من أجل العلم والتعليم، فهذا الانتقال أتاح له أن يتدرج في العلوم بداية بتعلم اللغة العربية ثم علوم الشرع إلى الفقه والفروع، ولم يكن النيل من هذه العلوم سهلاً، بل ينبغي البحث عن الشيخ الذي يمكنه من نقول هذا العلم وملازمته لفترة طويلة من الزمن، حتى بلغ مبلغاً عظيماً في العلوم، اقتنع به العديد من العلماء والشيوخ والطلاب في إفريقية وجبل نفوسة وجربة وأريغ وبلاد الجريد، مما دفع وفد من طلبة جربة إلى مخاطبته بضرورة تكوين حلقة لنظام جديد عرف بنظام حلقة العزابة في مطلع القرن الخامس الهجري. هذا النظام الذي يبدو أنه نجح إلى حداً بعيد في حفظ تعاليم الأباضية، لتظل باقية إلى يومنا هذا، إضافة إلى قيادة المجتمع الأباضي اجتماعياً واقتصادياً وسياسياً، فمن خلاله تجاوز مريدي الأباضية عديد المحن والأزمات، فهذا النظام الجديد والذي لم يحظ بدراسة أكاديمية تعنى بأهمية حلقة العزابة في صياغة تاريخ المجتمع الأباضي حتى بداية القرن الخامس الهجري .

وقبل الخوض في دور هذا الشيخ في سعيه نحو الإصلاح و تأسيس حلقة العزابة وما حققه في الانتقال والهجرة، ينبغي علينا أن نحيط بالظروف التي عاشها المجتمع الأباضي

بأقاليمه المتعددة مع مطلع القرن الخامس الهجري الحادي عشر الميلادي، حيت عاشت المجتمعات الأباضية في منطقة طرابلس وبلاد الجريد وسوف وأريغ ووارجلان ظروف غير مستقرة، يمكن وصفها بالعصيبة بدأت خيوطها في الظهور عقب هزيمة مانو التي ابتلت بها نفوسة283هـ وطال أمدها حتى نهاية القرن الخامس الهجري، وقد حاول علماء جبل نفوسة والمجالات الأباضية المجاورة احتواء تلك الأزمات والعمل على انحصارها، وضبط أمورهم الاجتماعية بالقدر الذي يسمح لهم بالأمن والاستقرار .

فعلى الرغم من تقلد عديد الشيوخ الولاية في مدن الجبل وكذلك في بلاد الجريد ووارجلان وأريغ وسعيهم نحو الإصلاح، فإن هنالك عوامل قاسية خيمت على المجتمع الأباضي خلال القرنين الرابع والخامس الهجريين، أضعفت من فاعلية تلك الجهود المصلحة وأحدثت انقسامات قادت المجتمع في تلك المناطق نحو المجهول، بقيت أثارها حاضرة إلى يومنا هذا نوجزها في النقاط الآتية:

1 – كان للحروب الداخلية والصراعات المذهبية داخل المجتمع الأباضي دور في تراجع قوة قبائل نفوسة، وكانت السبب الرئيس في إضعافها، اد أشار الشماخي بالخصوص إلى حرب وقعت بين أهل ويغو وأهل شروس في ولاية أبي عبدالله الويغوي ومن بعده أبي الشعثاء بن البغطوري وكان ذلك في نهاية القرن الرابع[55] الهجري، وعند نهاية القرن الثالث الهجري أشار الشماخي أيضاً إلى قتال وقع بين شروس وتندميرة في زمن ماطوس بن هارون وماطوس بن ماطوس، وفي ولاية أبي خزر[56] وقع قتال بين بني وسين وبني يفرن هزمت فيه بني وسين وأقيم الصلح بينهما[57]، وعند نهاية القرن الخامس حدثت حرب أخرى في زمن وارسفلاس بن مهدي دامت سبعة سنوات[58]، وبدون المضي في تفاصيل الانقسامات داخل الجبل في غياب سلطة حاكمة قوية كما كان أيام العهد الرستمي قبل 296هـ، فإن الجبل عاش تطاحن داخلي طوال تلك المرحلة التاريخية .

2 – على الرغم من أن علماء نفوسة وشيوخها كانوا في عهد الدولة الزيرية يحظون بالاحترام ويتمتعون بحرية الرأي، ما يسمح لهم بالمناظرة داخل مدينة القيروان، إلا أن الأمور تبدلت مع انتقال بني زيري إلى المذهب السني أواخر القرن الرابع الهجري، عند ذلك أرادت

قبيلة زناتة الموالية لصنهاجة (بني زيري) القضاء على دعاة الأباضية وأغاروا على جبل نفوسة مرات عدة، منها غارة على قرية تاغروريت النصف الثاني من القرن الخامس الهجري، وكانت السبب الرئيس في هجرة سكانها للمغرب الأقصى، وبدون الدخول في تفاصيل تلك الصراعات فإن المجتمع الأباضي في نفوسة وبلاد الجريد بمختلف مدنه وقراه تعرض لهجمات انتقامية من طرف ثلاث قوى الدولة الفاطمية، ومن بعدها صنهاجة، (بني زيري)، وقبائل زناتة التي عملت لصالح بني زيري ودولة بنو خزرون في طرابلس[59]، بعد انفصال هذه الأخيرة عن صنهاجة في النصف الأول من القرن الخامس. الهجري[60] .

3 – وإضافة إلى التحالف بين تلك القوى التي استهدفت الجبل طوال القرنين الرابع والخامس الهجريين، نجد أن الخطر الهلالي كان أشد وطأة، ولو أنه أضعف من قوة صنهاجة وزناتة، إذ تذكر بعض الكتابات إن القبائل العربية الهلالية ومنها زغب ورياح ضربت خيامها في سهل طرابلس (الجفارة) سفح الجبل وربما حتى داخله، مما أحدث اضطرابات داخل مدنه وقراه .

وبعيدا عن تفاصيل تلك الصراعات، فإن تلك الوضعية التي عاشها المجتمع في جبل نفوسة والمجالات المجاورة أوجدت تصدعاً داخل المجتمع، لهذا عمل علماء الأباضية على احتواء تلك العوامل وسعوا إلى المحافظة على المذهب الأباضي حسب الطريقة الوهبية، فكان ديوان العزابة إحدى التنظيمات المهمة والزاد الذي تحصن به المجتمع الأباضي، ولهذا كان للشيخ أبوبكر الفرسطاني دور مهم في هذا البناء الجديد (نظام حلقة العزابة)[61] .

لم يهتم هذا البحث بدراسة مختصة حول هذا الموضوع، لكننا نقتصر في دراستنا هذه على بدايات التكوين الأولى لنظام الحلقة، ودور الشيخ ابن أبو بكر الفرسطاني في إظهاره وكتابة أجزائه، يعد نظام حلقات المذهب الذي وضعه محمد ابن بكر والذي يشمل الحياة اليومية نظام جديد لم يعرف أيام الإمامة الرستمية بتاهرت، يقدم لنا وصفاً لنظام الحلقة وفيه أخبار اجتماعية مفيدة، فضلاً عن أهميته للحياة الدينية والمذهبية في الأقاليم التي انتشر فيها، خاصة في جبل نفوسة وبلاد الجريد وجزيرة جربة[62] .

تأسس نظام العزابة بفضل مبادرة لوفد من طلبة جربة التقوا بالشيخ أبوبكر وهو في طريقه إلى قسطيلية سنة 405 هـ / 1014م، كما أوردنا سلفاً، وذكروا له وصية الشيخ أبي زكريا ابن فصيل ابن أبي مسور، بإقامة وتأسيس حلقة للعلم، ويبدو أن الشيخ أبوبكر لم يقتنع بالفكرة بداية الأمر، أو ربما لانشغاله بمسائل أخر، غير أنه وافق بعد إلحاح من الوفد المذكور وركن للقبول، وطلب منهم مهلة أربعة أشهر ليصيغ فيها نظاماً محكماً ودقيقاً لتسيير الحلقة، واتفقوا على ذلك، وفي تلك الأثناء تدخل شيخ أبي مسور وساعده في تخطيط وترتيب تلك الفكرة وبذلك عرف هذا النظام في بعض الكتابات "بالسيرة المسورية البكرية"[63] ولنقل تلك الفكرة إلى واقع اجتمع الشيخ أبو بكر وأستاذه ابن فصيل بالشيوخ السبع وهم: (أبو عمران موسى بن زكريا، أبو عمرو النيميلي، أبو يحيى زكريا بن جرناز، جابر بن سدرمام، كباب بن مصلح المزاتي، ابو مجبر توزين المزاني، عبدالله بن مانوح اللمائي الهواري)، إذ اجتمع هؤلاء في غار امجماج بجزيرة جربة وشرعوا في تأليف ديوان حلقة العزابة وهو سابقة في التأليف الجماعي عند علماء الإسلام، وكان ذلك في نهاية العقد الأول من القرن الخامس الهجري الحادي عشر الميلادي، يقع الديوان في أثنا عشرة جزاء تلف الجزء الأخير منه[64] .

وفي سنة 409هـ / 1018م، انتقل هذا الديوان من مرحلة التأليف إلى التطبيق، حيث شهدت (بلدة أعمر) بالقرب من مدينة تقرت المعروفة جنوب شرق الجزائر تطبيق وتكوين أول حلقة لنظام العزابة بغار (تين يسلي) والذي يبدو أنه حفر لهذا الغرض وعرف بالغار التسعري في إشارة إلى السنة التي حفر فيها[65].

وعلى أثر هذا النظام الجديد الذي كان للشيخ أبو بكر دور مهم في تأسيسه، شرع هذا الأخير في التنقل والسفر مع طلبته في أقاليم المغرب الإسلامي، من نفوسة شرقاً إلى وادي ميزاب غرباً، يتعلمون ويعلمون الناس مسائل الدين حسب ما ورد في أجزاء ديوان العزابة، ومن المناطق التي انتقل فيها الشيخ واستقر لفترات من الزمن (تين يسلي، قسطيلية، طرابلس، الماية، جربه، تفا جالت، وادي اريغ، وغلانة[66]، قنطرارة، وراجلان، بادية بني مصعب)، ولكثرة تجواله عرف بسيدي محمد السائح، وقد عمل الشيخ حسب تلك القوانين

الواردة في الديوان، قسم العزاب[67] إلى ثلاث مجموعات على غرار التعليم في المراحل التربوية المعاصرة الأصاغر والأواسط والأكابر (أساسي، ثانوي، جامعي)، وفي هذا الشأن يورد الوسياني نقلاً عن كتاب معجم أعلام الأباضية نصاً فيه تفاصيل عن تلك المراحل بقوله: " وكان أبو يعقوب محمد بن يدر الزنزفي في أمسنان بجبل نفوسة في عاداته يجلب العزاب المبتدئين من أهاليهم ويعلمهم الآداب والسير، فإذا وصلوا الشيخ محمد بن سدرين الوسياني أقراهم القرآن والإعراب والنحو، وإذ وصلوا الشيخ أبا عبدالله محمد بن بكر علمهم الدين والعلم والأصول، فمثلوا هؤلاء الثلاثة في اريغ وقالوا: أبو يعقوب القاطع للأعواد من الجبل حزمات، والنجار أبو عبدالله محمد بن سدرين يقطع الحزمات ألواحا ويركبها الشيخ عبدالله بن بكر رحمة الله عليهم، ويصلحها ويسنيها"[68] .

يبين لنا هذا النص النظام التعليمي الصارم الذي اعتمده أصحاب حلقة العزابة، كما أنه يوضح الكيفية التي ينتقل فيها الطلبة من مرحلة إلى أخرى وفي الأخير، يجتمع الشيوخ الثلاث ويخرج الطلبة الذين وصلوا إلى نهاية المراحل، وبذلك فإن تنقل هؤلاء الشيوخ بين مدن وقرى المناطق الواردة أمراً لابد منه، وكذلك الطلبة الذين يلزمون شيوخهم في تنقلاتهم مقدمين لهم فدراً وافراً من الاحترام وتقديم الخدمة كلما أمكن ذلك .

لم تكن حلقة العزابة نظاماً دينياً يسعى إلى ترسيخ العلوم الأباضية فحسب، أنما كان نظاماً شاملا، إذ أنه لم يقتصر على الرجال دون النساء، فالشيخ محمد بن أبي بكر نظم منذ بداية تكوين الحلقة (مجلساً للنساء يتعلمن منه ويستفتينه في أمور الدين والحياة، ومن العالمات اللائي تخرجن على يده: (أم البخت وأختها)[69] ، كما أنه كان يعالج الكثير من الأمور الخاصة بالحياة العامة للمجتمع، حيث كان الشيخ إماماً لجميع الأمور والأحكام الخاصة بالأحوال الاجتماعية وكان تلاميذ نظام حلقة العزابة يتعلمون الاعتناء بشؤون المجتمع، وقد توارت أجيال شيوخ الأباضية هذا النظام[70]، لذلك شكل نظام العزابة بداية من ظهوره في العقد الأول من القرن الخامس الهجري الحادي عشر الميلادي نقلة جديدة لذا أهالي الأقاليم الأباضية، فمن خلاله حافظوا على ثراتهم وأمكن لهم من الوقوف في وجه

الأزمات والأخطار المحدقة، ومن خلاله وضعوا ضوابط لحياتهم الاجتماعية رغم الأزمات التي مروا بها[71] .

من خلال هذا المرور لمساهمات عدد من شيوخ العلم النفوسيين وغيرهم من وارجلان وبلاد الجريد يتضح لنا أن تلك الفئة كان لها دوراً مهماً في الحياة الدينية يتعدى الجانب الديني إلى الإصلاح في جوانب كثيرة من حياة المجتمع، فمكانة الشيوخ والعلماء تأتي في مقدمة فئات المجتمع، إذ تحظى هذه الفئة بالكثير من الاحترام، لكونها فئة متعلمة تقود المجتمع، فأسندت لعديد الأئمة والشيوخ حسب ما أوردته هذه الدراسة مهام قيادة الجيوش، ومهام الولاة والشورى، وحل العديد من المسائل الدينية (الإفتاء)، وفي المقابل فإن هذه الفئة من أكثر الفئات التي يمارس ضدها التهميش والقتل الجماعي والملاحقة عند الصراعات المذهبية، وهذا ما نجده في ملاحقة إبراهيم بن الأغلب لعدد من الشيوخ والقضاء عليهم، كما نجد ذلك واضحاً في ملاحقة الشيخ أبي خزر من طرف الزيريين، غير أن هذه الفئة بقيت تتصدر بقية فئات المجتمع في الاحترام والمشورة وقيادة المجتمع داخل المحيط الأباضي .

ومن خلال ما أتت به الدراسة نجد أن شيوخ الأقاليم الأباضية عملوا بشكل جماعي في كل ما يتعلق بالحياة الدينية، فقد كانت المسألة الدينية تدور من لألوت إلى تاغرمين وتعود إلى لألوت و بالعكس، كما أن نظام حلقة العزابة وتأليف ديوانه بشكل جماعي يعطي لنا مؤشراً أن شيوخ الأباضية كانوا على اتفاق في كل ما يخص توجهاتهم الدينية وما يصون حياتهم الاجتماعية، ويعد ديوان حلقة العزابة بمثابة دستور يعالج قضايا اجتماعية واقتصادية، كما أثبتت الدراسة، إنه بالرغم من تعدد الولاة في جبل نفوسة بعد موقعة مانو 283هـ، فإن هؤلاء الولاة عملوا في تشاور فيما بينهم وحققوا الاستقرار داخل مجتمع الجبل، غير أن تهديدات الأخطار المجاورة من فاطميين وصنهاجيين (زيريين) أوجدت ما بينهم الخلاف، لاسيما تلك الخلافات التي تحولت إلى حروب بين القبائل لكنها في الغالب ما يتم حلها، وبذلك فإن هذه الفئة لها دور مهم في مختلف جوانب حياة المجتمع وقادته سياسياً وثقافيا واجتماعياً.

هوامش البحث:

(1) ينظر مسعود مزهودي، جبل نفوسة منذُ انتشار الإسلام حتى هجرة بني هلال إلى بلاد المغرب، (الجزائر: مؤسسة تأوالت، ط1، 2005)، ص 95-96 .

(2) ينظر تاديوش ليفيتسيكي، المؤرخون الأباضيون في شمال إفريقيا، ترجمة ماهر جرار وريما جرار، (بيروت: دار الغرب الإسلامي، ط1، 2000) ص 150.

(3) مسعود مزهودي، جبل نفوسة منذُ انتشار الإسلام حتى هجرة بني هلال إلى بلاد المغرب، ص 219 .

(4) محمد بن أبي القاسم القيرواني، المؤنس في أخبار إفريقية وتونس، (بيروت: دار المسيرة للصحافة والنشر، ط 3، 1993)، ص 37.

(5) أبو العرب محمد القيرواني،طبقات علماء إفريقية وتونس، (تونس: الدار التونسية للنشر، ط 1، 1968)، ص ص 73 – 79 .

(6) أبوبكر عبدالله المالكي، رياض النفوس جـ1 (بيروت: دار الغرب الإسلامي، ط2، 1999)، ص 30 ..

(7) مسعود مزهودي، جبل نفوسة منذُ انتشار الإسلام حتى هجرة بني هلال إلى بلاد المغرب، ص 45 .

(8) هو أبو عبيدة مسلم بن كريمة مولى لبني تميم، حيث كان مولى لعروة بن أدية التميمي، أخ مرداس بن أدية، عاش في مدينة البصرة وأخذ العلم عن جابر بن زيد وصحار العبدي وجعفر بن السائب العبدي العماني، وهو أبرز علماء الإباضية في عهد الكتمان – محمد عوض خليفات، النظم الاجتماعية والتربوية عند الإباضية في شمال إفريقيا في مرحلة الكتمان (عُمان: ط1، 1982)، ص 103 – عبدالله بن يحيى الباروني النفوسي: رسالة سلم العامة والمبدئيين إلى معرفة أئمة الدين، (عمَّان: مكتبة الضامري، ط1، 1992)، ص 13 .

(9) سليمان باشا الباروني، الأزهار الرياضية، (لندن: دار الحكمة، ط 1، 1979)، ص 35 .

(10) للاطلاع على بعثة هؤلاء الأعلام، ينظر أبو زكريا يحيى بن بكر، سير الأئمة وأخبارهم، (الجزائر: المكتبة الوطنية، ط1، 1979)، ص 55 وما بعدها – بنظر عبدالله بن يحيى الباروني، سلم العامة والمبتدئين إلى معرفة أئمة الدين، ص 12 وما بعدها .

(11) المذهب الأباضي ينسب إلى عبدالله بن أباض، غير أن المؤسس الحقيقي للمذهب هو جابر بن زيد الأزادي ولد سنة 21هـ، وتوفى سنة 96هـ، من أهل القرن الأول الهجري، عاش في البصرة بالعراق، ينشر العلم في المساجد ويدعو إلى التمسك بالدين والمحافظة على أصوله وفروعه، قال فيه أنس بن مالك صاحب رسول الله صلى الله عليه وسلم " اليوم مات أعلم من على ظهر الأرض " .علي يحيى معمر، الإباضية في موكب التاريخ،(سلطنة عمان: مكتبة الضامري للنشر والتوزيع، ط3، 2008م)، ص 112.

(12) إسماعيل محمود عبد الرزاق، الخوارج في بلاد المغرب، (الدار البيضاء: دار الثقافة، ط 1، 1964)، ص 54.

(13) أحمد مختار عمر، النشاط الثقافي في ليبيا، (طرابلس: منشورات الجامعة الليبية، ط1، 1971)، ص 116 – محمود حسين كوردي، الحياة العلمية في جبل نفوسة وتأثيراتها على بلاد السودان الغربي، (بنغازي: دار الكتب الوطنية، ط1، 2008م)، ص . 87

(14) .علي يحيى معمر، الإباضية في موكب التاريخ، ص 280 وما بعدها – مسعود مزهودي، جبل نفوسة منذُ انتشار الإسلام حتى هجرة بني هلال إلى بلاد المغرب، ص 131 وما بعدها .

(15) محمد بن موسى بابا عمي وآخرون،معجم أعلام الإباضية ج2، (غرداية : جمعية التراث ، ط2، 1999)، ص 464.

(16) **أبي** زكريا يحيى بن أبي بكر، سير الأئمة وأخبارهم، ص 92 .

(17) ينظر المرجع نفسه، ص 92 – مسعود مزهودي، جبل نفوسه منذ انتشار الإسلام حتى هجرة بني هلال إلى بلاد المغرب، ص 96-97 .

(18) محمد بن موسى بابا عمي وآخرون، معجم أعلام الإباضية ج2، ص 166 .

(19) المرجع نفسه ، ص 368 وما بعدها .

(20) المرجع نفسه ، ص 219 .

(21) ابن الجمع، من أهل القرن الرابع الهجري، كان غزير العلم تلقى علمه بالمشرق مسقط رأسه، ثم ارتحل إلى مصر ثم سكن توزر فسجلماسة، حيث اشتغل بالتدريس، من تلاميذه: أبو الربيع سليمان بن زرقون النفوسي، وأبو يزيد مخلد بن كداد صاحب الحمار، عالم تحرير مطلع على علوم الحيل والنظر له ديوان على حسب قول الدرجيني، وأوصى بكتبه إلى أبي الربيع – محمد بن موسى بابا عمي وآخرون، معجم أعلام الأباضية ج2، ص 114 – 115 .

(22) المرجع نفسه، ص 202 .

(23) سير أبالربيع الوسياني، نقلاً عن محمود كوردي، الحياة العلمية في جبل نفوسة وتأثيراتها على بلاد السودان الغربي، (بنغازي: دار الكتب الوطنية، ط1، 2008)،ص 118 .

(24) محمد بن موسى بابا عمي وآخرون، معجم أعلام الأباضية ج2، ص 480 .

(25) المرجع نفسه، ص 495 .

(26) أحمد سعيد الشماخي، السير ج2، تحقيق محمد حسن، (بيروت: المدار الجديد، ط1، 2009م)، ص 656.

(27) محمد بن موسى بابا عمي وآخرون، معجم أعلام الأباضية ج2، ص 466.

(28) كان سلمة بن سعد يتنقل في الجبال والصحارى مبتعداً عن مقر الولاة فنزل نفوسة ودمر ونفزاوة وما جاورهم من المناطق التي تضم تجمعات أباضية كبيرة، ومما سهل عليه تلك المهمة أنه في كل منطقة يحل بها يكون له فيها أتباعاً يخلفونه عند مغادرته لها، ومن الكتابات التاريخية تذكر إن سلمة بن مسلم كان يدعو للمذهب الأباضي بحماس ويقول: " وددت لو يظهر هذا الأمر يوماً واحدا ولا أبالي أ ن تضرب عنقي) – ينظر سعد زغلول عبد الحميد، تاريخ المغرب العربي، (الإسكندرية: دار بور سعيد للطباعة، ط1، 1978)، ص ص 288، 289 .

(29) مسعود مزهودي، جبل نفوسة، ص 47 .

(30) محمد بن موسى بابا عمي وآخرون، معجم أعلام الأباضية ج2، ص 446.

(31) محمود كوردي ، الحياة العلمية لجبل نفوسة، ص 118 .

(32) لفينسكي، المؤرخون الأباضيون في شمال أفريقيا، ص 119–120 .

(33) محمد بن موسى بابا عمي وآخرون، معجم أعلام الأباضية ج2، ص 328 .

(34) المرجع نفسه، ص 202 .

(35) محمود كوردي، الحياة العلمية في جبل نفوسة، ص 120 .

(36) محمد بن موسى بابا عمي وآخرون، معجم أعلام الأباضية ج2، ص 444 – محمود كوردي، الحياة العلمية في جبل نفوسة، ص 122 .

(37) لفينسكي، المؤرخون الأباضيون، ص ص 151 . 152 – ينظر محمد بن موسى بابا عمي وآخرون، معجم أعلام الأباضية ج2، ص 32 .

(38) خزانة نفوسة للكتب يقصد بها مكتبة شروس للكتب والتي توجد داخل قصر وُلم، أنشئت في القرن الرابع الهجري مازالت أطلالها موجودة فوق قمة الجبل من ناحية الشرق لمدينة شروس، وإلى الشمال الغربي من قرية مرقس إحدى قرى الحرابة، زار الباحث أطلال هذا القصر مرات عدة .

(39) أحمد سعيد الشماخي، كتاب السير ج3، (بيروت: دار المدار الإسلامي، ط1، 2009)، ص 959 – لفينسكي، المؤرخون الأباضيون، ص 50 – 51 – محمد بن موسى بابا عمي وآخرون، معجم أعلام الأباضية ج2، ص 49 .

(40) لفينسكي، المؤرخون الأباضيون في شمال أفريقيا، ص 50–51 .

(41) المرجع نفسه، ص 58 .

(42) محمد بن موسى بابا عمي وآخرون، معجم أعلام الأباضية ج2، ص 122–123 .

(43) لفينسكي، المؤرخون الأباضيون في شمال أفريقيا، ص 118–119 .

(44) محمد بن موسى بابا عمي وأخرونا، معجم أعلام الأباضية ج2، ص 58 .

(45) ابن خلدون، العبر وديوان المبتدأ والخبر ج6 (بيرون: دار الكتاب اللبناني، ط1، 1959)، ص 31 .

(46) لفينسكي، المؤرخون الأباضيون في شمال أفريقيا، ص 153 .

(47) مقرين البغطوري، سيرة مشايخ نفوسة، ص 90–91 – ينظر علي مصطفى المصراتي، مؤرخون من ليبيا، (طرابلس: الشركة العامة للنشر والتوزيع، ط1، 1977)، ص 30–32 .

(48) علي مصطفى المصراتي، مؤرخون من ليبيا، ص 66 .

(49) أبي زكريا يحيى بن أبي بكر، سير وأخبار الأئمة، تحقيق عبدالرحمن أيوب، (تونس: الدار التونسية للنشر، 1985م)، ص 330 .

(50) مسعود مزهودي، جبل نفوسة منذ انتشار الإسلام حتى هجرة بني هلال إلى بلاد المغرب، ص ص175–176.

(51) ينظر، ص 166 .

(52) محمد بن موسى بابا عمي وآخرون، معجم أعلام الأباضية من القرن الأول الهجري إلى العصر الحاضر ج2، ص 368.

(53) علوم الآلة من العلوم التي تهتم بالتقرب إلى الله والآلي كثير الإيمان – ابن منظور، لسان العرب م1، تحقيق ياسر سليمان أبو شاوي – مجدي فتحي السيد، (القاهرة: الدار التوفيقية لتراث، ط1، 2009، ص 233 .

(54) محمد بن موسى بابا عمي وآخرون، معجم أعلام الأباضية ج2، ص 368 .

(55) أحمد سعيد الشماخي، السير، ص 327 .

(56) هو يغلا بن زلتاف (أبو خزر) من كبار علماء الأباضية، برع في علم الكلام وتفرد فيه بآراء متميزة، وهو من أبناء الحامة بقسطيلية من بلاد الجريد بالجنوب التونسي وفاته كانت سنة 380هـ / 990م – للمزيد ينظر محمد بن موسى بابا عمي وآخرون، معجم أعلام الأباضية من القرن الأول الهجري إلى العصر الحاضر ج2، ص 477 .

(57) محمد بن موسى بابا عمي وآخرون، معجم أعلام الأباضية من القرن الأول الهجري إلى العصر الحاضر ج2، ص 266 .

(58) المصدر نفسه، ص 327 .

(59) بالرغم من ثبوت تلك الهجمات فإن الكتابات التاريخية لم تذكر صراحة وقوع جبل نفوسة تحت نفوذ تلك القوى بشكل مباشر، غير أن الكتابات الأباضية أشارت في العديد من المواضع بدفع ضرائب مخصصة للمسودة، تلك المصطلح الذي اعتمدته تلك الكتابات لم يكن نعت لدولة بعينها من دول إفريقية الثلاث (الأغالبة، الفاطميون، صنهاجة)، إضافة إلى قبائل زناته والقبائل الهلالية والسليمية – انظر أبي زكريا يحيى بن أبي بكر، سير الأئمة وأخبارهم، أحمد سعيد الشماخي، السير.

(60) مسعود مزهودي، جبل نفوسة منذ انتشار الإسلام حتى هجرة بني هلال إلى بلاد المغرب، ص 156 وما بعدها

(61) لم يكن هذا البحث دراسة متخصصة حول هذا الموضوع أنما نقتصر في دراستنا هذه على بدايات التكوين الأولى لنظام العزابة، ودور الشيخ محمد بن بكر الفرسطاني في إظهاره وكتابة أجزائه .

(62) الحبيب الجنحاني، دراسات في التاريخ الاقتصادي والاجتماعي للمغرب الإسلامي، ص 196 .

(63) محمد بن موسى بابا عمي وآخرون، معجم أعلام الأباضية من القرن الأول الهجري إلى العصر الحاضر ج2، ص 369 .

(64) المرجع نفسه ، ص 271 .

(65) علي بحبى معمر، الأباضية في موكب التاريخ، ص 189 – 190 .

(66) وغلانة هي وارلفة حالياً على الطريق المؤدية من توغورت إلى بسكرة، لفينسكي، المؤرخون الأباضيون في شمال أفريقيا، ص 50.

(67) العزاب جمع عزابي، شق المصطلح من العزوب عن الدنيا والإقبال على الآخرة، وخدمة للصالح العام، ولا يعني ذلك العزوب عن الزواج – محمد موسى بابا عمي، معجم أعلام الأباضية ج2، 369 .

(68) محمد موسى بابا عمي، معجم أعلام الأباضية ج2، ص 369 .

(69) أم البخث، كانت قيد الحياة في سنة 471هـ / 1078م، وهي بنت خال أبي الربيع سليمان بن يخلف، وهي من " ميوكين " فريباً من تمولست بالجنوب التونسي (بني خداش حالياً)، أخذت العلم عن أبي عبدالله محمد بن بكر الفرسطائي، كانت على جانب كبير من الصلاح والعلم، المرجع نفسه، ص 85 .

(70) المرجع نفسه، ص 369 .

(71) محمد قوجة، " لمحة عن المجتمع الأباضي في عهد الكثمان من خلال كتاب السير الوسياني "، ورقة 1، نشر جمعية صيانة جربة .